الطرق الصوفية
وأثرها فى الصومال

أفريقيا قارة الغد تدخل فى التاريخ ، انطلقت القوى التحريرية فى آفاق القارة لتغير وجه التاريخ العالمى بكل امكانياته وطاقاته واتجاهاته .

وأفريقيا قارة إسلامية يكمن فى آفاقها غد الإسلام . وللطرق الصوفية فى افريقيا مكانه الصدارة والقيادة .

ويحدثنا الأستاذ عبد المنعم عبد الحليم فى كتابه — الجمهورية الصومالية — عن الطرق الصوفية ومكانتها فى الصومال وأثرها فى انتشار الإسلام فيقول :

وفى معرض حديثنا عن نشر تعاليم الإسلام ، لايمكن أن نغفل جهود الطرق الصوفية فى هذا المضمار . فقد ساهمت هذه الطرق فى إنشاء المراكز الدينية التى تدرس فيها أصول الدين للصوماليين . وما زالت هذه الطرق إلى اليوم تتمتع بمكانة كبيرة ونفوذ عظيم بين الصوماليين . وأكثر الطرق الصوفية انتشارا فى صوماليا ، الطريقة القادرية وتليها الصالحية ثم الأحمدية والرفاعية .

الطريقة القادرية :

تنسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧ — ١١٦٦ م) المدفون فى العراق ، وهى أقدم الطرق الصوفية فى الإسلام وأول طريقة دخلت الصومال ، وذلك على يد اليمنيين والحضارمة الذين استقروا فى مقديشو وزيلع وغيرها من المناطق الساحلية . ولم تتوغل هذه الطريقة فى الداخل إلا فى عام ١٨١٩ عندما أسس الشيخ إبراهيم حسن جبرو مركزاً لها مكان بلدة برديرة الحالية على نهر جوبا وفى هذه المنطقة أيضاً تأسس أول مركز من مراكز استيطان الجماعات الصوفية لزراعة الأرض واستغلالها ولذلك يطلق الصوماليون عليها « جماعة أو جماهة » نظراً لقدمها وبدء هذا النظام فيها .

ونشر الشيخ عويس بن محمد البراوى هذه الطريقة فى جوبا العليا وأسس مسجدا

وزاوية فى قرية « توججلة » ، وتوفى عام ١٩٠٩ م ودفن فى بيولى بالقرب من توججلة . وفى مولده يقام احتفال كبير حول ضريحه يستمر ثلاثة أيام .

ومن مشايخ الطريقة القادرية البارزين فى صوماليا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشى الشهير بالشيخ صوفى المتوفى سنة ١٩١٩ م . وقد أسس زاوية فى مقديشو حيث يوجد ضريحه .

وقد أخذ الشيخ « عبد الله بن يوسف القلنقونى » على عاتقه نشر الطريقة القادرية فى الشمال وخاصة فى مديرية بجرتين .

الطريقة الأحمدية :

أسسها « سيد أحمد بن إدريس الفاسى » المتوفى فى عسير ببلاد العرب (١٧٦٠ — ١٨٣٧ م) وقد أدخل هذه الطريقة إلى شرق إفريقية الشيخ « على ميه درجبا » الصومالى ، وكرس نفسه لنشرها فى الصومال واكتسب شهرة عريضة لما ذاع عن صلاحه وتقواه . والتف حوله عدد كبير من المريدين وخاصة من سكان وادى شبيلى الأوسط . وتوفى فى معركه سنة ١٩١٧ ودفن فيها .

الطريقة الصالحية :

تنسب إلى « محمد بن صالح » وهو ابن أخ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ أحمد بن إدريس الفاسى مؤسس الطريقة الأحمدية . وقد توفى محمد ابن صالح سنة ١٩١٩ ، وقام بنشر طريقته فى الصومال الشيخ « محمد جوليد » أحد تلاميذه ، وكان محمد بن صالح قد عينه « خليفة » للطريقة فى الصومال . وأسس الشيخ جوليد زاوية ومركز استيطان للطريقة فى منطقة الشدلة (البانتو الصوماليين) بين بلدتى جوهر وبلعد على نهر شبيلى .

ومن أشهر مشايخ الطريقة الصالحية ، الشيخ « على نيروبى » الذى أسس مركزاً لها فى جنوب بلدة برديرة .

ومن أهم أتباع الطريقة الصالحية « محمد بن عبد الله حسن » مهدى الصومال الذى أعلن الثورة فى وجه الاستعمار فى الربع الأول من القرن العشرين ، وسيد محمد يوسف الذى ثار ضد الحبشة عام ١٩١٧ م

وتنتشر الطريقة الصالحية بين سكان المنطقة الواقعة بين مديرية بجرتين وبين الصومال البريطانى . كما تنتشر فى منطقة الأوجادين وفى بعض المناطق فى جنوب صوماليا .

الطريقة الرفاعية :

واتباعها فى الصومال أغلبهم من العرب المستوطنين .

الاعتقاد فى الأولياء :

عند وفاة أحد مشايخ الطرق الصوفيه (الخليفة) يرتفع إلى مصاف الأولياء ، ويشيد أتباعه ضريحاً له يصبح موضع تعظيم سكان المناطق المجاورة يحجون إليه كل عام للتبرك والاحتفال بذكرى وفاة الولى . ويسمى الصوماليون هذا الاحتفال « سيارة » (وأصلها زيارة) وتقام فى أثنائه الولائم وتعقد حلقات الذكر حول مقام الولى . ويبالغ البانتو الصوماليون فى الاحتفال بهذا المولد ، ويتحمسون للزيارة وحلقات الذكر أكثر من الصوماليين الخلص .

ومن أشهر هذه الموالد ، مولد « الشيخ صوفى » ومقامه فى مقديشو ، ومولد « الشيخ عويس » فى بلده توججلة ، وهما اللذان نشرا الطريقة القادرية فى الجنوب وكذلك مولد الشيخ « على ميه درجبه » ، وتقصد الآلاف من أتباع الطريقة الصالحية الى مقامه فى مركة للاحتفال بمولده يوم ٥ صفر . ويستمر هذا المولد ١٥ يوما ويختتم بحلقة ذكر كبيرة .

غير أن أشهر الأولياء فى الجنوب وخاصة فى وادى نهر شبيلى هو « أوحلتر » الذى كان من أسباب شهرته كرامته وقدرته على دفع خطر التماسيح التى تسكن النهر .

ومن الأولياء من يختص بحماية المحصولات مثل « أوماد » . وقد توفى فى بلدة بورساكيه ، ولكنه لم يدفن فيها بل دفن على شاطئ شبيلى . ويستعين الزراع به لدفع خطر الطيور عن المحصولات بأن يأخذوا حفنة من التراب من حول مقبرته وينثرونها فى الحقول .

وعلى شاطىء مقديشو يوجد مقام صغير لأحد الأولياء يدعى « عويس القرنى » ويعتقد الصوماليون أن هذا الولى يمنع طغيان مياه البحر عن المدينة كما يمنع هبوب الرياح الشديدة التى يعتبرونها علامة على قلة الأمطار . وفى بداية موسم المطر من كل عام يذهب الصوماليون إلى مكان الشيخ عويس وينحرون الذبائح وهم يرددون المقطع الأخير من دعاء الاستسقاء قائلين : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا » . ثم يخرجون فى جماعات ويطوفون بشوارع مقديشو وهم يرددون هذا الدعاء .

من روائع التراث الصوفى :

الصوفية ومقام الرضا

قال الجنيد : الرضا ترك الاختيار .

قال الحارث المحاسبى : الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم .

قال ذو النون المصرى : الرضا سرور القلب بمرّ القضاء .

قال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح .

قال ابن عطاء: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنه أختار له الأفضل.

قال سفيان الثورى عند رابعة العدوية : اللهم أرض عنى . فقالت له : أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض ؟ !

قال سهل بن عبد الله التسترى : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ، فطوبى لهم وحسن مآب .

يريد قوله جل وعز : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

فمعناه الرضا فى الدنيا تحت مجارى الأحكام ، يوارث الرضوان فى الآخرة بما جرت به الأقلام .

قال الله تعالى : « وقضى بينهم بالحق ، وقل الحمد لله رب العالمين » فهو قول الفريقين من أهل الجنة والنار من الموحدين من أهلها ، فإن المشركين لا يؤذن لهم فى الحمد ، لأنهم محجوبون .